

عظة في أحد القديسة مريم المصرية

أنتوني (بلوم) ميتروبوليت سروج

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

باسم الأب والابن والروح القدس

أسبوع بعد أسبوع نشعر أننا نقرب أكثر فأكثر من قيامة المسيح المجيدة. ويبدو لنا أننا نتحرك بسرعة، من الأحد إلى الأحد، إن جاز التعبير، نحو اليوم الذي ستختفي فيه كل المخاوف، كل الأهوال. ومع ذلك، ننسى بسهولة أنه قبل أن نبلغ يوم القيامة، يجب علينا، مع المسيح ورسله، أن نسير على طريق الصليب. "ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان سيُسَلَّم إلى أيدي الناس فيصلبونه، وفي اليوم الثالث يقوم". كل ما نلاحظه هو أنه سيقوم. ولكن هل فكرنا يوماً في الطريقة التي ذهب بها التلاميذ إلى أورشليم وهم يعلمون أن الصليب قد اقترب؟ كانوا يتحركون بخوف. لم يكونوا ناضجين بعد بما يكفي ليكونوا أولئك المستعدين أن يضحوا بحياتهم لتنتشر الرسالة. كانوا يتحركون في خوف. وعندما أخبرهم المسيح أنهم ذاهبون الآن إلى أورشليم، عائدون إلى المدينة التي كانت آنذاك قد جحدت المسيح، وعرضت حياته للخطر، قالوا له: "دعنا لا نذهب". وتلميذ واحد فقط، وهو توما، قال "لا. فلنذهب معه ونمُت معه".

هذا التلميذ هو الذي نسميه المشكك، وأعتقد أننا نسميه كذلك عن جهالة. إنه الشخص الذي لم يكن مستعداً لتسليم ثقته وإيمانه وحياته ودمه لله دون يقين. ولكن قلبه كان للمسيح بلا تحفظ. كم هو رائع أن يكون المرء مثل هذا الرجل! لكن التلاميذ الآخرين لم يهجرُوا المسيح. وساروا نحو أورشليم. ولدينا اليوم مثال آخر لشخص مرَّ بمأساة قبل أن يقابل المسيح. إنها مريم المصرية. كانت خاطئة وعاهرة. خانت الله في نفسها وفي جسدها. ولم تكن تحترم هذه النفس وهذا الجسد الذي خلقه الله. ومع ذلك فقد واجهت بشكل مأساوي حقيقة أنه ما من سبيلٍ لها للدخول إلى هيكل الله إلا إذا رفضت الشر واختارت الطهارة والتوبة وجدة الحياة.

فلنتأمل في التلاميذ الذين كادوا أن يتوسلوا إلى المسيح ألا يعود إلى أورشليم، لأن أورشليم كانت المدينة التي فيها مات جميع الأنبياء؛ ولم يكونوا يريدون أن يموت المسيح، وكانوا خائفين. فلنسأل أنفسنا إلى أي درجة نشبههم؟ فلنسأل أنفسنا بحرية اليوم كيف نشبهه أو لا نشبهه مريم المصرية – مريم التي عاشت حياتها بحسب طرقها ورغباتها الخاصة، واتبعت كل تجارب جسدها وروحها؛ وفي أحد الأيام أدركت أنها لا تستطيع دخول هيكل الله.

إننا ندخل الهيكل الإلهي بسهولة، وبسهولة أيضاً ننسى أن الكنيسة التي نأتي إليها هي جزء صغير من عالم اختار أن يكون غريباً عن الله، ورفض الله، وفقد الاهتمام به؛ وأن المؤمنين القلائل قد صنعوا لله ملجأً – نعم، الكنيسة هي ملء السماء، وفي نفس الوقت مكان ملجأ مأساوي، ففي المكان الوحيد الذي يحق لله

أن يكون فيه لأنه مرغوبٌ في هذا المكان. وعندما نأتي إلى هنا، ندخل إلى العالم الإلهي. يجب أن ندخل إليه بشعور من الرهبة، لا أن نلججه كما لو أنه أي مكان، بل أن ندخل إليه كمكان هو الملكوت الإلهي بالفعل. لو كنا نفكر بهذه الطريقة لكننا، عند وصولنا إلى أبواب الكنيسة، فكرنا وتصرفنا ولو قليلاً مثل مريم المصرية. كنّا سنتوقف ونقول: "كيف يمكنني الدخول؟" وإذا فعلنا ذلك من كل قلوبنا، منكسري القلوب، ومع شعور بالرعب من حقيقة أننا بعيدين جداً عن الله وغرباء للغاية وغير مخلصين له، فعندئذٍ ستفتح الأبواب وسنرى أننا لسنا ضمن مجرد مساحة كبيرة محاطة بالجدران ولكننا في فضاءٍ هو سماء الله التي نزلت إلى الأرض.

فلنتعلم إذًا من هذه التجربة ما يعنيه السير خطوة بخطوة نحو القيامة، إذ لكي نصل إلى القيامة، علينا أن نمر عبر الجلجثة، يجب أن نمر بمأساة أسبوع الآلام ونجعلها مأساتنا، مشاركين المسيح وتلاميذه والجموع من حوله في رهبتها ورعبها. ونختبرها أيضًا كنارٍ محرقة تحرق فينا كل ما لا يستحق الله وتطهرنا. وربما في يوم من الأيام، عندما تحرق النار كل ما لا يستحق الله، قد يصبح كل واحد منا صورة للعليقة المشتعلة، ملتهبة بالنار الإلهية ولا تحترق، إذ فقط من يحتمل نار الله هو من سينجو من بيننا. أمين.

Source: Metropolitan Anthony Surozh. Sunday of St Mary of Egypt. 16th April 2000.
https://www.mitras.ru/eng/eng_110.htm